



الرواية العربية



**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

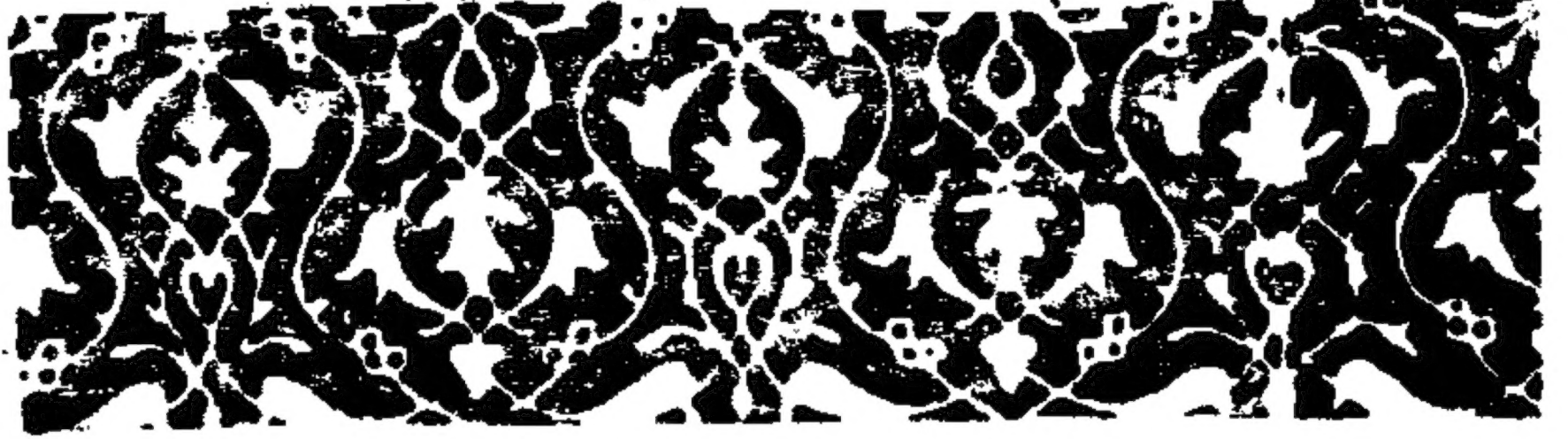
الصفحة

رواية : محمد جبريل





الرواية العربية



**** معرفتي ****
me3refaty.maktoobblog.com

الصَّهْبَة

رواية

محمد جبريل

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com



المنشأة للنشر والتوزيع

١٩٩٠

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

ال لوحات مهداة من الفنان : محمود فرج

الاخراج الفنى : جرجس ممتاز

.. والأجيال من الناس تموت

منذ زمن الاله ((رع))

ويحل مكانها أجيال أخرى

ان ((رع)) يشرق بنفسه في الصباح الباكر
ويعرب ((آتوم)) ليسترىح في ((منو))

والرجال تلقح ، والنساء يحملن

وكل أنف يستنشق الهواء

والاصباح يأتى ، ويلدن كثيرا ..

(أنشودة عثر عليها في مقبرة كاهن آمون « نفرحتب »
بطيبة)

خلف المقهى وراءه ، واتجه الى شارع سيدى نصر الدين ..
طال انتظاره لبدر المنشاوى .. لما بدأ فى لعب « عشرة »
جديدة • قرر أن يذهب الى مكان الحفل بمفرده .. لا يبعد
عن طريقه اليومى ، بين المقهى والبيت ..

ولد فى السيالة • شقة تطل على مسجد المسيرى ..
لم يتركها الى حى آخر ، الا للمكتبة خلف المرسى أبى العباس ،
أو للكلية فى محرم بك ، أو لزبارة أخواله فى العطارين ،
وآخر أعمامه الأحياء فى اللبان .. مع ذلك ، فانه لم يعرف بأمر
الحفل ، الصهبة ، المولد ، الجلوة ، حلقة الذكر .. لم تسمه
أحاديث المقهى على نحو محدد .. المؤكد أنه قد مضى عليه
أيام ، وربما أسابيع • التفاصيل الدقيقة واختلاف الحكايات ،
وشت باتصال ما يجرى ..

قال جابر محجوب :

— للموالد مواعيدها .. أما هذه الصهبة فقد أتت في أغسطس ..

مط شفتيه ، واستطرد :

— ربما تطول حتى ينزع النقاب عنم تطلب ذلك ..

قال المنشاوى :

— امتنعت المرأة يوما عن رفع نقابها .. فتوعددها الشيخ أن تظل عاقرا ..

سأل باستغراب :

— لماذا يزايدون على المرأة ، ما داموا لن يدفعوا مهرها حقيقيا ؟ ..

قال المنشاوى :

— نسيت أنها متزوجة ..

قال جابر محجوب :

— ليست امرأة واحدة ..

ولجأ الى يديه موضعا :

— كل من يشق عليها الانجاب ، تقف في المزاد ، حتى يرفع النقاب ، فيزول العقم ..

همس بحيرة :

— مجرد رفع النقاب ؟ ..

قال جابر في لهجة تسليم :

— هذا هو ايمانهم ..

تشابكت الروايات ، وامتدت ، وتناقضت ، وان شكلت
عالما غريبا ، شغله الفضول للتعرف اليه • يغير اتجاهه — لا يسير
في شارع محمد كريم ، الى مستوصف الأنفوشي ، ومنه الى
شارع العوامري ، فالسيالة • البيت ، يفصل بينه وبين مسجد
المسيري زقاق صغير ، وبطل ، من الواجهة ، على شارع
السيالة — يميل الى طريق ترابي ، على جانبيه بيوت ودكاكين ،
تنتهي الى ساحة الصهبة ..

الصهبة ؟ ! ..

هذه هي التسمية ، حتى يشاهد ما ملأت به أحاديث
المقهى خياله ..

اعتذر بدر المشاوي لانشغاله في الطاولة • وعد
بمرافقته عصر اليوم التالي • قهره فضوله ، فقبل الانتظار حتى
ينتهي الدور • وعندما رأى الطاولة تطوى ، وتفتح ، وينتهي
اللاعبان لبدء « عشرة » جديدة ، قام الى الصهبة بمفرده ..

غلبته الدهشة ..

بدا المكان — بأنواره وزيناته وأعلامه وبيارقه ، والزحام
الهائل — غريبا عما ألفه في موالد أولياء الحي • تلاغطت —
وتداخلت — الأدعية والابتهالات والأذكار • تطوحت الأجساد
في حلقات متقاربة ، ومتباعدة • تراحم الكثيرون على الأرصفة ،
وفي مداخل البيوت والشرفات والنوافذ والشوارع الجانبية • •
ظل في موضعه على الناصية • شغلته الفرجة ، وامتنعت
الغربة من حوله • •

سیدی نصر الدین لیس ولی هذه الليلة ، وليسوا هم
أحباء ولا مريدين ولا محاسيب • انما نزلوا في حضرته • أقاموا
حفلمهم في الساحة المقابلة لضريحه ، باعتباره أحد أولياء الله •
ام يدعهم سیدی نصر الدین • لا عمليات ختان أو باعة حاوی
وحمص وفول سودانی وبخور ، ولا العاب مولد وركوب
خليفة ، ولا صلة للذاكرين بصاحب الضريح : لا ابداء اشتياق ،
أو وصف خوارق ، أو اصفاء الصفات على صاحب المقام •
لم يكن مولدا أو يشبهه • شاهد موالد أبی العباس والبوصیری
وياقوت العرش وعلى تراز • يخوض — منذ طفولته — مع
أييه زحام المولد • يسلم ساعده الى قبضة أييه
يتحركان — بصعوبة — في تلاصق الأجسام والأعلام
والرايات والنايات والطبول • يتمنى ركوب المراجيح ، فينهره



أبوه ، ويسحبه بعنف • يبدى الرجل عجبه حين يراه ساكنا ،
لا يتحرك لذكر الله وسماع الأناشيد :

— اما أنك بلا ايمان •• أو تظن نفسك من الواصلين ! ••

لما كبر ، تردد على الموالد مع أصدقائه ، وبمفرده •
تكونت في ذهنه صورة الموالد ، يستدعيها اذا أتت سيرتها
أمامه : المداخين ورواة القصص ومنشئى الأذكار ومواكب
الصوفية وألعاب الحواة والمراجيح والنشان والأعلام والمشاعل
والطبول والمزامير • اختلف المشهد أمامه عن الصورة التى
ألفها • ليسوا من طرق آكل الزجاج ، وازدرداد الأفاعى ، والقبض
على الحديد الملهب ، وغرس الأسياخ فى الخدين ، وطعن الجسم
بالخناجر ، وابتلاع النار ، ولا من الشاذلية ولا الرفاعية
ولا المولوية أو الدراويش • من طالما تابع مواكبهم فى موالد
أولياء الحى ••

استند الى الباب الحديدى لبيت ، أول الميدان الصغير •
أهمل — لطول قامته — وقوف العشرات أمامه ، يشاركون ،
ويشاهدون ، ويعانون الزحام الذى تزايد ، فصار خانقا ••

انفسح المكان ، لما تشابكت أيدي الرجال • وقفوا فى
حلقة ، متجهين الى الداخل ، وتشابكت أذرع النساء داخل
الحلقة ، متجهات الى الخارج • تعالت الدفوف والمزامير

والدريكات والشخايل ، وبدأ الرقص : يتحرك الرجال الى الداخل ، وتتجه النساء الى الخارج • يرفع الرجال أيديهم ، فيسهل طريق النساء في العودة الى الداخل ، والعشرات أفسحوا للراقصين ، صنعوا دائرة أوسع لصق الأبواب والجدران ، وعلى مداخل الشوارع ••

شده انسجام الموسيقى مع الرقص وحركات التوقف ، تبديل الأوضاع والحركات ، تشابك الأيدي والأذرع وانفصالها ، كأنه الذكر ، وان اختلف الذكر بتطوح الرءوس ، واهتزازات الأجساد والأيدي ، والدعوات الرتيبة ، المتتالية ••

بدأ كل شيء جديداً ، وغير مألوف • لكنه ظل مشغول الخاطر باللحظة المتوقعة • طالت أحاديث المقهى حولها • أطالت في روايتها • وشتها بالألوان والظلال • ليسوا من العجر • للعجر سحنهم ولهجتهم وزيمهم • ولم تشر الأحاديث الى أنهم يمارسون الغناء وأعمال السحر والتنجيم والوشم وختان البنات ، ولا ضبطوا متلبسين بسرقة بيت أو دكان أو خطف طفل ، ولا هم جماعة مغلقة ترفض الاختلاط • النساء المنقبات يحلمن بالخصوبة • الجميع يشغلهم علاج العلة • من يرفع النقاب يظفر بثواب انقاذ حياة ••

تنامي في داخله فضول المشاهدة • لم يقو على كتمه ، صرفه

عن بقية الأحاديث ، دفعه الى مغادرة المقهى دون أن يصحبه
المنشاوى • أهمل ما عرف عنه من ميل الى الصحبة ، اذا غادر
البيت أو المكتبة ••

حى ا ••

أرعشته الصيحة المفاجئة • اقتحمت داخله بالخوف ،
أو بما هو أفسى • تلفت حوله فى حيرة • رافقت عيناه اتجاه
النظرات نحو مدخل البيت المواجه للمسجد • تدافع منه صفار
وكبار وزغاريد وأدعية وابتهالات ••

استكان الزحام فى موضعه لفترة • هدا صخب النسوة •
ثم غادر البيت ثلاثة رجال فى أواسط العمر ، يرتدى أحدهم
ثياب المشايخ ، ويرتدى الآخر الثياب البلدية ، وامرأتان سافرتان ،
ارتدتا الملائة اللف ، تتوسطهما امرأة ارتدت ملائة مماثلة ، وان
أرخت على وجهها نقابا ، لا تبين منه حتى العينان ••

تدافعت الأجسام لصق الجدران • شكلوا - وسط
الساحة - ما يشبه الدائرة • اتجهت النسوة الثلاث الى منتصف
الدائرة تماما ، واتخذ الرجال مقدمة الصفوف المحيطة • بدت
التصرفات محسوبة ، والجميع على معرفة بتوالى التصرفات ،
وما يجب اتخاذه ••

استندت المرأة - في المنتصف - الى يدي الآخرين
ياستكانة • اقترب من النسوة رجل لا يختلف - في زيه
أو هيئته - عن الآخرين ، فيما عدا شومة مقروطة تهزها يده ••

قال الرجل :

- نبدأ المزاد ••

تدخل الشيخ :

- هل يعرف الجميع ما يجب عمله ؟ ••

قال الرجل :

- لا غرباء بيننا ••

وتعالى صوت :

- مائة ••

تعالى من بعده الأصوات :

- مائتان •• ثلاثمائة •• أربعمائة ••

تبين سهولة المزايذة ، فعلا صوته :

- ألف ! ••

ترددت الحاقة • ثم تعالى صوت :

- ألف ومائة ! ••

قال مدفوعا بجرأة لم يعهدها في نفسه :

— ألف وخمسمائة ! ..

تعالى الأصوات :

— ألف وستمائة .. وسبعمائة .. وثمانمائة .. ألفان ..

قاطع الأصوات المزايدة :

— خمسة آلاف ! ..

المزاد كلمات • يحترمون الأرقام والبداية والنهاية ، حتى
تنتهى الصهبة • لكنه ليس مطالباً باحترام شيء ، لا الأرقام
ولا الطقوس أو الممارسات الغريبة ، ولا كل هؤلاء الذين
اجتذبتهم الغرابة ..

أسند الرجل راحته الى كتف المرأة ، وقال :

— حلال عليك ! ..

حدث ما حدث كأنه حلم • تردد فى الاقتراب من المرأة
المنقبة • زاد فى ارتباكها النظرات المحيطة ، تنتظر ، تستحثه على
التقدم ..

أحاديث المقهى حددت الصهبة منذ بدايتها • يرفع النقاب ،
ويمضى بالمرأة خطوات • تتعالى الزغاريد والتكبيرات ، وتعود
المرأة من حيث أتت ، وينصرف الجميع • لم تشر الأحاديث الى
اللحظة التى تلى رفع النقاب : هل يتأمل الوجه ، أم يخفض

نظره ؟ .. وان لاحظ - في وقفته - أن من سبقوه اتجهوا
بأعينهم - فور نزع الحجاب ، الى بعيد ..

رفع النقاب بيد مترددة • حراب النظرات المحيطة تمنعه
من التلفت • الوجه كأنه الجنة • ليست من السيالة ولا بحرى ،
ولا من الحياة نفسها ، كأنها تنتمى الى عالم السحر الذى يجوس
داخله ..

نسى - فى اللحظة التالية - كل ما وعاه من أحاديث
المقهى • اقترب بفمه ، وقبلها • سرت بعدها - فى داخله رغبة ،
فرضت سيطرتها ، فدأت لها تصرفاته • طوق الجسد المنتفض
بساعدى الجنون • لا يذكر ان ثأت قد حاولت التخلص منه ،
وان تذكر - فيما بعد - أن نهديها اصطدا بصدره ، وهو
يحاول احتضانها • ربما أسكتتها المفاجأة ، ولعلها حاولت إبعاده ،
فلم تفلح فى الفكك من ساعديه • فرضت الرغبة نفسها ، فنسى
كل ما حوله • نسى اللمة المحيطة ، والسكون الذى أذهلته
المفاجأة • حين أعاد تذكر ما حدث ، لاحظ أن المراقبين لم تمنعاه
من فعلته ، ولا الرجال حاولوا دفعه بعيدا • تركوا المرأة فى
حضنه ، حتى صحا على الوجوه التى لفها الدهول ..

لم يدر بباله ، كيف يواجه اللحظة التالية ، ولا ماذا يفعل
إذا اصطدمت عيناه - ثانية - بالأعين الملتفة حوله ؟ ..

تحركت الجفون ، فأيقن من زوال المفاجأة ..

تراجع الى الخلف ، فأفسحوا له الطريق ..

عدل من وقفته ، وسار الى الأمام ، فانقرجت اللمة
الصامتة . سار بخطوات متثاقلة ، كأنه يجبر خوف الحياة كلها ..
بدت المسافة من منتصف الساحة الى أول شارع حداية ،
بعيدة ، أو أنها المستحيل . ماذا يفعلون لمن يخالف ما توارثوه؟ ..
ولماذا تركوه حتى أنهى ما فعل ؟ .. ومن أين تأتيه ضربة
الغضب ، المقبلة ؟ ..



لم يصدق - وهو يتجه الى البحر - أنهم تركوه . لم يكن
الطريق طريقه . حدث ما حدث بسرعة ، أملتة رغبة مفاجئة ، لم
يقو على كتمها . تصرف بعفوية ، أو بما دفعه اليه الجنون ..

تعثرت خطواته ، لا يدرى ان كان عن تعمد أم خوف .
هذه أن يغادر المكان ، يجاوز حلقة الأعين ، يتعد ويتعد ،
الى حيث لا يكون أحد من هؤلاء الذين امتلأت بهم ساحة
الصهبة ..

نظر ورائه ، فهدأت نفسه . تماسكت خطواته . صارت
أقرب الى الهرولة ..

في اتجاه شارع قصر رأس التين الى شاطئ الأنفوشي ،
أعاد التلفت • ثم مال الى شارع يرم التونسي • وسلك حوارى
وأزقة ، تفضى به الى طريق البيت ••

أبدت عجبها للرجفة التي رافقت استيقاظه :

— خفت عليك من طول النوم ••

تساءل وهو يتلفت — بعفوية — حوله :

— هل كنت أحلم ؟ ••

قالت باشفاق :

— اللهم اجعله خيرا ! ••

أضافت وهي تفتح النافذة المظلة على شارع السيالة :

— أعددت الافطار ••

تذكر أنه لم يتناول طعاماً منذ صباح أمس • تناول
افطاره في المكتبة • ثم اكتفى بأدوار الشاي ، يحملها اليه عم
درويش صاحب الكشك الملاصق لزاوية سيدي أبي الفتح ••

قبل أن يتجه الى الصهبة ، عاد الى البيت ونام ، فلا غداء
ولا عشاء ، وها هو ذا نهار جديد ، ونفسه مصدودة ••

هل كان يحلم ، أم أن الذاكرة تستعيد ما جرى ؟ ..

قال في صوت هامس :

— انى متعب ! ..

قالت :

— نمت كثيرا .. هل أنت مريض ؟ ..

قال :

— ربما ! ..

داخلها قلق :

— ألن تفتح المكتبة ؟ ..

وهو يعتدل في رقدته :

— سأظل في السرير ..

ثم وهو يسحب الغطاء على وجهه :

— انى متعب ! ..

غادرته بنظرة مشفقة ..

تداخلت أصوات الشارع — أسفل النافذة — بدعوات
الصهبة وأناشيدها وأغنياتها وأذكارها • تصور — للحظة — أن

الصهبة تمر أمام البيت ، لكنه اعتدل في نصف القومة ، واستأنف
الرقاد ، لما أصاخ السمع ، فتوضحت أصوات الباعة ،
وأصحاب الدكاكين ، والمنادين من الشرفات ، والمارة ..

في لحظة أو أقل ، حلق الرجل ، ومضى ..

تراجع الى الخلف ..

أطال الرجل نظره ، كأنما ليتيح له التثبت من ملامحه :
حلال عليك ! • القامة الطويلة ، النحيلة ، والشعر الأكثر ،
والبشرة السمراء ، والشفة المتدلّية ، والعين التي تعاني سحابة
بيضاء • هو الرجل نفسه ، وما جرى لم يكن حلما أو يشبهه ..

تراجعت خطواته - بتلقائية - وصعد السلم ..

ولد في السيالة • تعرف الى الوجوه ، وألفها • حتى من
لم تقم بينه وبينهم صداقة أو جيرة أو معرفة ، يستدل
بالملامح الظاهرة ، يعرف وان لم يسلم أو يحدث ، أن من التقى
به هو من أبناء الحي • اذا التقيا خارج السيالة ، يطيل كل
منهما النظر الى الآخر ، أو يتسم • ربما سأل بهمس : هل
أنت ؟ .. أو هز رأسه بما يعنى المعرفة • التقى بالرجل للمرة
الأولى في ساحة سيدى نصر الدين • لم يكن شاهده في السيالة
من قبل ، لا في الشوارع ولا المقاهى والمساجد القريبة ..

تظاهر بالتصديق ، وان لم يطمئن الى رأى أمه ، بأن التعرف
الى الملامح لم يعد شرطاً لتبين ان كان الشخص من بحرى أو من
أحياء أخرى . توافد على الحى أفراد وأسر ، عشرات ومئات .
زحفت الغربة ، فلم يعد أحد يدرى من جاره ، ولا من هو
عابر طريق ..



فتح النافذة ، فطار عصفور كان يقف على الحافة ،
وهبت — من الشرق — نسمة منعشة .
قال :

— مضى على وفاة أبى تسعة أشهر ..

قالت الأم وهى تعيد ترتيب فراشه :

— الفاتحة له ! ..

أنهت قراءة الفاتحة بآمين مرتفعة . ثم قالت :

— تعيش وتفكر ..

أضافت متسائلة :

— لماذا ؟ ..

قال بعصبية كأنه ينفى اتهاماً :

— لا شيء .. تذكرت ذلك الآن ! ..

تطلعت الى الصورة المعلقة على الجدار :

— لعل روحه تطلب الرحمة ..

قال :

— بعد أسبوعين يتخرج ماجد في كلية الهندسة ، ويواجه

مسئوليّاته .

وقفت في مكانها :

— ماذا تعنى ؟ ..

غالب تردده :

— أريد أن أكلّمك في مسألة تخصنى ..

وهى تربيته بنظرة متوجسة :

— لم تتذكر أبالك مصادفة ؟ ! ..

اصطنع ابتسامة :

— تذكرته عندما قررت أن أكلّمك ..

هزت رأسها تستحّثه على الكلام ..

قال :

— حياة البطالة تقتلنى ! ..

شوحت بالمنفضة في وجهه :

— لو أنك أكملت تعليمك .. لكنت الآن في وظيفة
محترمة ! ..

تملأ بضيق :

— لا أطلب التعديد .. ولكنني أطلب رأيك ..

ألف من أمه تذرهما على كل ما يفعله • رفضها لآرائه
وتصرفاته ، وتغيره منذ وفاة أبيه : انقطاعه المفاجيء عن الدراسة •
أحاديثه الساخطة ، الراضية لما جرى • خروجه الى المقهى
من الضحى ، فلا يعود قبل اتصاف الليل • التذمر جسر
الموافقة لكل ما يطلبه • تدهش لمجرد أن ما طلبه جال بخاطره •
تبدى غضبها ، وتعب ، وربما نالته بالشتيم ، ثم تهز رأسها — في
النهاية — بما يعنى الموافقة ..

قالت في نقاد صبر :

— ماذا تريد ؟ ..

كأنه ينتظر السؤال :

— المكتبة ..

تقوس حاجباها :

— ما لها ؟ ..

- قال وهو يعدل — بعفوية — ياقة البيجامة :
- منيرة تزوجت .. وماجد يستعد للوظيفة ..
- أضاف بسرعة كأنه يقضى على التردد داخله :
- حرام أن تظل المكتبة مغلقة ..
- حدقت فيه بنظرة غير مصدقة :
- انها كل ما تركه أبوك .. فهل ترثها بمفردك ؟ ..
- وهو يقاوم انفعاله :
- ولماذا لا أديرها لحسابنا ؟ ..
- اصطنعت التعجب :
- وتهجر المقهى ؟ ! ..
- شاب صوته تذلل :
- أريد أن أستقل بحياتي .. فساعدني ! ..
- قالت في لهجة جادة :
- أفضل أن أبيع المكتبة ليتقاسم ثمنها الجميع ..
- وعلا صوتها :
- لا تنس أنى امرأة .. ولا مورد لى ! ..

قال بتعمد واضح للدهشة :

— أنت أمى كذلك .. وأنا مسئول عنك ! ..

غلب النسيج صوتها :

— من كان يتحمل مسئوليتى .. مات ! ..

مع أن أباه لم يعد هائل الطول ولا الضخامة ، مثلما كانت
نظرتة إليه وهو صغير . يأمره ، فيناوله الكتب والكراسات من
الأرفف العليا ، لا يستخدم السلم مثل أبيه . وإذا وقف
بجواره ، تأمل الصلح الذى توسط رأسه الأشيب .. مع ذلك ،
ظلت لأبيه مكاتته القديمة . يهابه ، وينفذ — دون أن يجرؤ على
السؤال أو النقاش — كل ما يراه . ربما ناقش مع أخويه آراء
الأب وتصرفاته ، وجدوا فيها الخطأ والصواب . ولكن
ملاحظاتهم — فى غياب الأب — لم تجاوز الهمس . أمهم وحدها
كانت تسأله ، وتناقشه ، وتلاحظ ، وتعيب عليه أشياء ولكنها
كانت تخضع دائما لآرائه ، تقبلها ، وتدافع عنها ، أمامهم : هذا
رأى أبيكم .. فلا تخالفوه ! ..

كان الشعر هوايته .. لكن انزعاج أبيه بدا واضحا
لما عرف نته :

— كيف تفكر فى مستقبلك ؟ ..

قالت الأم :

— اتركه وما يفضله ..

قال وهو يهز قبضة يده :

— حتى أسوت .. فأنا المسئول عن حياته ..

همس بقلق :

— ذلك ما أحبه ..

اقترب منه كأنه يهم بضربه :

— لن تعرف مصاحبتك أكثر منى ..

سأل :

— ولماذا القسم العلمى ؟ ..

قال :

— الكليات النظرية تخرج مدرسين أو متعطلين ..

أضاف وهو يضغط على الكلمات :

— المستقبل للكليات العملية ..

رسم أول عامين فى كلية العلوم • ونجح — بالخوف من

أبيه — فى العامين التاليين • فلما مات أبوه ، هجر الدراسة

بلا تردد ..

لم تصدق الأم : هل يهجر الدراسة بعد أن أوشك على

بلوغ الغاية ؟ ! ..

أُخِلت وجهها للدهشة :

— تريد أن تصبح أقل من أخيك ؟ ! ..

قال وهو يهز رأسه :

— لا تشغلني الكثرة ولا القلة .. ما يهمني هو ما أطمئن

إليه ..

استطرد من بين أسنانه :

— كان همه أن أصبح صورة منه ! ..

واجهته بنظرة غاضبة :

— كان أبوك رجلا فاضلا

دون أن يجاوز هدوءه :

— لا أنكر ! .. ولكنه اختار التجارة .. أما أنا ،

فقد كان لي حياة أخرى ..

قالت لتنتهي المناقشة :

— أكمل تعليمك .. ثم افعل ما شئت ! ..

زفر كأنه فقد صبره :

— لست ملزما بالسير في طريق لم اختره ..

نطق في ملامحها فزع :

— تريد أن تترك الجامعة ؟ ..

قال وهو يتجه الى خارج الشقة :

— بل تركتها فعلا ! ..

عرف الرجل من صوته • انشغل بفك اربطة الكتب ،

دولى ظهره لواجهة المكتبة ، والمطرق ..

تهلل وجهه بفرحة حقيقية ..

قال الشيخ عرفة الدجيشي :

— كنت أعدك لأخذ العهد .. لكنك خاصمتنا منذ رحيل

أييك ! ..

لو أن الرجل يعلم ما طرأ على حياته .. انقطعت عن الصلاة

في المسجد • هذا ما تعلمه • فهل تعلم أنى تركت الكلية ،

ولم أعد مشغولا بشيء ؟ ! ..

لما عرض على أييه فكرة الحاقه بالمعهد الدينى ، قال

أبوه فى عدم اقتناع :

— غاية ما يتاح له عمله بعد التخرج ، واعظ أو خطيب

مسجد ..

وعلا صوته فى حسم :



— المستقبل في العلم يا مولانا ..

أدهشته كلمات آية • يرفض التعليم الديني ، ويصر على الكلية العملية ، ويصلي كل الاوقات حاضراً في المسجد ، ويفرأ الاوراد وكتب التراث وسير الصالحين والتابعين ، ولا يمل التحدث في كرامات الأولياء من ساكني الحي ، ويحرص على زيارة الأضرحة ، وتقديم الشموع ، واندور ، وربما — ان ألت به وعكـه — لجا الى الوصفات الشعبية ، وينزل من الجهة اليمنى للسريـر ، ويمتنع عن السفر يوم الجمعة ، ويتشاءم حين تتحطم مرآة ، ويخشى المرور من تحت سلم خشبي ، ويتفائل اذا لمح قطا أسود اللون ، ويحب أحاديث الغيبات والخوارق ، وأسرار السحر والجان والعفاريت ، والأرواح الساكنة في الطير والحيوان والزواحف ، وتأويل الأحلام ، ويهوى قراءة الطالع ، ويشق في ستره زواج البنات ، ويحرص على ارتداء الجلباب والعباءة • وحين اختار البذلة للسفر خارج الاسكندرية، عاد فقذف بها داخل الدولاب ، يسبقها قسمه بألا يعود لارتدائها ..

كتم الشيخ حسرته ، وان ظل على رعايته له • أباح له التردد على غرفته بياقوت العرش ، والبقاء في المسجد بعد اغلاق أبوابه • أعاره الكتب الدينية ، وروى له قصص الأنبياء والصحابة وكرامات الأولياء ..

وقال له - يوما - بود :

- الزم حضرتي .. تجن خيرا باذن الله ! ..

حين وقف خارج مسجد ياقوت العرش حتى انتهت الصلاة
على أييه ، ووقف يتلقى العزاء - بين أخيه وعمه وأخواله - كان
ذلك آخر عهده بالصلاة والمساجد . طال نومه الى الضحى ،
ونسي وضوء الماء البارد ، والسعى وراء أييه في ظلمة
ما قبل الفجر ..

قال وهو يغالب الحرج :

- أصلى في البيت ..

قال الشيخ كالم تأمل :

- يومك كله في المكتبة ..

واتجه اليه بنظرة حزينة :

- أنت تصلى قضاء اذن ؟ ! ..

خشى غضب الشيخ الدجيشي ، لو أسرف في الكذب ،
فسكت ..

قال الشيخ :

- سأنتظرك من غد ..

استطرد بلهجة باترة :

— ان لم تأت الى كل صلاة في موعدها .. فسا علم أنك
هجرت طريق الله ! ..

أبوك مريض ! ..

قلتها في عدم تصديق . كأنك تعجبين لنضوب مياه
البحر ، شروق الشمس من الغرب ، دنو معجزات الزمن
الأخير ..

بدا في رقدته على السرير ، الملتصق بالجدار ، من فوقه
صورة له ، بالعباءة ، والعينين الحادتين ، والشارب الذي أهمل
انسداله على الشفتين ، كأنه ينتمى الى عصر آخر ، يختلف تماما
عن الجسد الممدد في استرخاء ومسكنة ، ولا يقوى على الحركة ..
قلت ، وأنا أنقل نظراتي بينك وبينه ، أشفق من الفزع
الذي كسا وجهك ، كأنك تمرضين بدلا منه :
— ماذا به ؟ ..

— لا أعرف ! .. شكا قبل النوم من ألم في صدره ،
وصحا في هذه الصورة ..

جاء الطبيب ، وأجرى كشفه ، وهز رأسه ، وكتب أدوية ،
ونصح — وهو يتسلم الأتعاب — بنقل المريض الى المستشفى ..

رافقناه الى مستشفى البحرية ..

أشفقت لخوفك من موت أبى ، واصرارك على حياته :
صليت ما لا يعد من الركعات ، وأطلقت البخور فى البيت ،
وقرأت الفنجان ، وفتحت المندل ، وصنعت « عروسة » وخزتها
من عين أسمائنا ، وأسماء الذين التقطتهم الذاكرة من الأقارب
والجيران ، وحتى من يترددون على البيت ، ولا تعرفين
أسماءهم ..

قال طبيب المستشفى :

— لا فائدة ! ..

نزعت الذهب من حول معصميك ، وهمست :

— هل يكفى ؟ ..

أعاد الطبيب قوله فى حسم :

— لا فائدة ! .. الأفضل أن يموت فى بيته ! ..

ذهبنا أربعة — أبى وأنت وماجد وأنا — لم تكن منيرة ،
فى بيتها البعيد ، قد عرفت ما حدث — عدنا ثلاثة أو أقل •
لم يكن ما حل بك مجرد حزن ، ولا حتى فزع • بدا أكبر من
كل المشاعر التى يمكن وصفها • أصبحت — فى الأيام التالية —
أما أخرى غير التى كانت تملأ الشقة ، بتنقلها بين الحجرات ،

وملاحظاتها وأسئلتها وشتائمها • اليد التي تشيح - ان لم يعجبها
الحال - في غضب ، الفم الذي ينطق كل ما يفد اليه ، الحركة
التي لا تهدأ بين الصلاة والحجرات والمطبخ والشرفة والنوافذ
وفتح الباب للطارقين ، ران عليها همود • لا تتحركين من مكانك
في الصلاة ، تطيلين النظر الى الصورة المعلقة على الجدار ،
تنهدين ، تستعيدين الذكريات في صمت ، أو تروين ما ألفنا
سماعه ، بعد أن تنظف منيرة المائدة من أثر الطعام ••

اكتفيت بمتابعة الخطوات • فعل عمى وأخو الى كل ما يلزم:
التعاقد مع « الفراشة » والحانوتي وفتح المقبرة واستخراج
شهادة الوفاة • لم أكن أعرف حتى أين يدفن أبى •• لم يكن
يتيح لنا السؤال أو التصرف في أى شيء • صيحة الزجر تلى
الكلمة الأولى ، فنسكت ••

حين عدنا من مقابر العامود ، لم يكن الحزن هو الذى
يلفنى ، ولم تكن الراحة كذلك هى ما أحسست به • كأنى
أبدأ - متأخرا - من جديد ••

أتناول الغداء ، فأعود الى المكتبة • وأتناول العشاء ،
فأذهب الى المقهى • حل ماجد مكاني في جلسة ما بعد تناول
الطعام • حتى اليوم العاشر ، وربما أيام بعده ••

كنت تروين الحكاية المعادة : كيف كان أبى في حياته ؟ ••
متى وخزته بدايات المرض؟ •• ماذا قال في البيت والمستشفى ؟ ••

المئات من أصدقائه وجيرانه في جنازته • حيرة الرجال بالنعش :
رفض السير الى جامع الشيخ لصلاة الميت ، وتوقف عند ياقوت
العرش • أدوا الصلاة ، فطار - والمشيرون يلاحقونه - الى
مقابر العامود • ما رواه الشيخ الدجيشي عن علمه وأدبه ،
وقيامه بفرائض الدين ..

ماجد ينصت ، أو يتظاهر بالانصات • كأنه الشريط الذي
يعاد من بدايته • لم أستطع صبرا • أعددت نفسي - قبل أن
تبدأ الجلسة - لمغادرة البيت • ماجد مجامل • يظل في مكانه
حتى يتغلب الملل في رواية الحكاية • تقومين - بذهاب منيرة -
الى أمور البيت ، فيغلق عليه الحجر • ..

قال لماجد :

- افعل مثلي ! ..

قال ماجد :

- تريد أن تحكى .. فهل أغضبها ؟ ..

غاب الدهشة :

- هل قالت شيئا لم تسمعه ؟ ! ..

قال ماجد بتأثر :

- لا أستطيع أن أغضبها ..



قال وهو يغلق باب الشقة وراءه :

— اذن .. تحصل ! ..

لم يسائل نفسه — وهو يغالب خطواته الى داخل المقهى —
هل اختار الجلوس فيه لأنه هو المقهى الذى كان يجلس
فيه أبوه ؟ ..

كان يلمحه فى طريقه من — والى — ميدان أبى العباس •
يجلس مع أصحابه على جانب الرصيف الموازى لطريق الترام •
تسرع قدماه ، فلا يبدو أنه قد لمح شيئاً ..

لما وضع المعزون أيديهم فى يده ، تبين وجوه من كان
يجالسهم أبوه ، الى منتصف الليل ، يناقشهم ويحدثهم ، وربما
فشا لهم أسرارهم الخاصة وأسرار البيت • ربما كلمهم عن أمه ،
وعن ماجد ومنيرة ، وعنه • أبان لهم ما لم يكن متاحا لكل من
فى البيت أن يعرفه ، أو يقترب منه ..

اطمأن الى اغلاق الباب وراءه ..

استقبله دفء المكان ودخان السجائر و « البوارى »
وأصوات النرد والنداءات واغط الكلام ..

طلب شايًا ، وتشاغل بالنظر — من وراء الزجاج المغلق —
الى الميدان ..

تداخلت الظلمة والبرد ، والرذاذ الذى لم ينقطع النهار بطوله ، فخلا الميدان من الحركة ، ما عدا أشباح تعبر الطريق بسرعة ، وعربات ترام تعلن عن قدومها ، بصير العجلات فى انحناءة نصف الدائرة ، أمام مسجد البوصيرى ، والحديقة الصغيرة ، المقابلة ..

تعرف الى أصحاب أبيه فى جلستهم المعتادة ، وان لم يتبينوا وجوده ..

كانوا من الأفندية • ثلاثة أو أربعة يبدو أنهم من الموظفين • يلتقون بعد صلاة العشاء الى ما قبل العاشرة • لاحظ أنهم لم يلعبوا الطاولة ، ولا الكوتشينة ، ولا أية لعبة مما يقضى بها رواد المقهى أوقاتهم • كانوا — دائما — يتحدثون • تظل الجلسة على حالها فى طريقه الى البيت ، وعودته منه • ينقص العدد أو يزيد ، ولكن المناقشات لا تنتهى ..

لمحه يوما ، فناداه ..

قدمه الى أصدقاء الجلسة ..

سأل أحدهم • فى حوالى الستين • بدا طربوشه مناقضا للراءوس العارية :

— فى أى مدرسة ؟ ..

قال أبوه :

— انه يستعد للجامعة ..

قال آخر ، يرتدى نظارة شمسية ، ويعتنى بزيه عناية واضحة :

— عليك بكلية التجارة لتساعد أهلك ..

قال أبوه :

— مجموعته كبير .. والأفضل أن يدخل الطب أو الهندسة ..

قال ثالث ، نسي ملامحه وهيئته ، حتى تذكره برؤيته في المقهى . لف جسمه بعباءة من الصوف . أميل الى القصر ، ويعانى بحة كالشرح :

— المهم استعدادك الشخصي .. والكلية التي يحبها ..
قال أبوه في حسم :

— مستقبل الشاب ليس هواية تخضع للمزاج ..

وأسرع فحادثته فيما ناداه من أجله ، ثم صرفه ..

مضت ساعة أو نحوها ، فأحس بوحدة قاسية تسلت الى داخله ، وسط تشاغله بالنظر الى الميدان ، وبتلقى التعليقات والنكات من الصخب حوله ..

قبل أن يخلى مكانه ، لحقه صوت :

— ممكن ؟ ..

نظر الى الكرسي ، واليد التي تناولته ، والوجه الباسم
بمودة :

قال :

— تفضل ..

بدأ بالتعليق على نوة قاسم • أخلت البحر من مراكب
الصيادين ، ومنعت الحياة بالقرب منه ..

قال وهو يفرك يديه :

— انها بالفعل نوة قاسم .. قسمت كل شيء ، حتى
ظهري ! ..

عقبا على مشاهدات الطريق ، وعلى أحاديث المقهى ..

صافحه — قرب منتصف الليل — مودعا :

— بدر المنشاوى ..

اطمأن للعودة فى الأيام التالية :

— منصور سطوحى ..

لما دخل جابر محجوب المقهى ، وسأل المنشاوى : هل

ستنظم أرشيف الحقانية وأنت في المقهى ؟ .. عرف وظيفة
المنشاوى ..

ضحك المنشاوى ، وصافحه ، وقدمه الى منصور ..
- جابر محجوب .. ميكانيكى سيارات بشارع
قبو الملاح ..

نهض نصف قومة . صافح ، وقدم نفسه :
- منصور سطوحى .. طالب بكلية العلوم ..
تأمل الوظيفتين ، فداخله قلق . رفض أبوه صداقته من
ابن عم هلول الفكهانى :

- صادق من هو فى ثوبك ..
وهو يغالب ارتباكه :

- عبد الهادى فى نهائى الطب ..
عبر تدلى شفته السفلى عن استياء :
- يهمنى أصله لا مهنته ..

أردف كلماته بنظرة صاعقة ، كومتة فى نفسه ..
زار المنشاوى فى عمله . مكتب منزو فى بدروم سراى
الحقانية . من حوله عشرات الدوسيهات والأوراق ..

تهلل المنشاوى لرؤيته ، وصحبه الى مقهى قريب يطل على
ميدان المنشية ..

شدته العفوية فى تصرفات المنشاوى • دخل رئيسه الغرفة ،
فواصل ما كان يتحدث فيه • يلقي العبارة البذيئة ، أو النكتة ،
يعقبها بضحكة مرسعة ، مبتورة ، كمن فاجأته شهقة ..

كان يوزع صداقته ودعاباته على أصدقاء المقهى • وكان
له أسلوبه فى الصداقة • يسأل عن الأحوال ، وينصت ،
ويعطى النصيحة • يظن كل واحد أنه له وحده ، يميزه ، دونا
عن الآخرين • ان لاحت نذر غضب أو مشاجرة ، أنهاها بنكتة ،
ولحقها بضحكته المرسعة ..

صحبه المنشاوى - فى اليوم التالى - الى بيته • على
ناصية شارع أبى نواية ، المتفرع من الحجارى ..

شقة صغيرة بها أثاث قديم • أصغر أخوته الخمسة • ينادى
أباه بالحاج • شيخ فى حوالى الستين • عرف مهنته لما قال
بدر : اذا أردت سمكا ، أطلبه من الحاج ! .. بدوا أصدقاء •
حتى الشيخ كان يشارك فى نكاتهم ، ودخل المطبخ يعد الشاى
بنفسه ..

قال الأب وهو يدنو بالصينية :

- هل التقينا من قبل ؟ ..

تأمل ملامح الشيخ :

— ربما ..

قال الأب :

— في حضرة الشاذلية أمام أبي العباس ..

قال كالمعتذر :

— لست مشاركا في الطرق الصوفية ..

أطلق بدر ضحكته المرسعة ، وقال :

— منصور عضو جديد في طريقتنا ..

استطرد وهو يثمل قذف النرد :

— الطريقة القهوية الطاولة المسائية ! ..

قال له المنشاوي :

— أنت في المكتبة في الصباح .. وفي المقهى بعد الظهر ..

وفاجأه بالسؤال :

— ألم تعد تذهب الى الكلية ؟ ! ..

اكتفى بالقول :

— لم أكن أحبها ..

قال جابر محجوب :

— تركت التعليم ؟ ..

حك أنفه بأصبعه :

— أنا الآن أعيد ترتيب أموري ..

تكلم عن الشعر الذى أحبه ، وكلية الآداب التى تمنى
دخولها ، واصرار أبيه على الكلية العملية . قرأ لهم من
قصائده . أبدوا اهتماما وتعاطفا ..

قال المنشاوى :

— لو أنى مكانك ما سمحت لشيء سوى الشعر أن

يشغلنى ..

أضاف متسائلا :

— ألا تحبه ؟ ..

شاب صوته توتر :

— ولماذا أكتبه ؟ ..

قال المنشاوى :

— اذن .. هبه كل وقتك ..

قال جابر محجوب :

— هل يأكل شعرا ؟ ! ..

استطرد متسائلا :

— والمكتبة ؟ ..

قال منصور :

— أنا واحد من أربعة يملكونها ..

قال المنشاوى :

— لست أدري ان كان شعرك مما يصلح للموالد .. لكن
نصيحتى لكل من يحب شيئا أن يفعله ! ..



أثارته الضحكة المبتورة ، الصادرة من المراكب المتناثرة فى
شاطئ الأنفوشى ..

كان الجو باردا • وشاطئ البحر خاليا من القعود والمارة،
والكبائن مغلقة ، والسحب غطت الشمس تماما ، فلا يبين الوقت
عن ساعة محددة ، واصطدام الأمواج بالمراكب يعمق من الوحشة
التى التف بها المكان ..

عاد — بعفوية — ونظر ..

لم يكن قد شاهد المرأة من قبل • بدت — بالملاء المنسدلة



على كتفيها ، وشعرها الذى عقصته كذيل حصان - غريبة عن
بحرى • ولم يتعرف اليها فى أحاديث أصدقاء المقهى ••

واته جرأة ، فهمس لجابر محجوب وهو يسحب كرسيه
بالقرب منه :

- رأيتك هذا الصباح ••

قال بجانب فيه :

- متى ؟ ••

- أنت •• والملاءة اللف ! ••

أطلق ضحكة مجلجلة :

- تتجسس على ؟ ••

دهمه ارتباك :

- مجرد مصادفة •• كنت أتمشى على الكورنيش ••

قال بدر المنشاوى :

- حتى البحر وصلت اليه أفعالك ••

قال جابر محجوب وهو يرفع راحتيه كمن يتقى خطرا :

— رآنى على الشاطىء ..

قال المشاوى بجدية :

— البحر ملاك طاهر .. لو أنك لوثته لابد أن تبتلى ..

طمأن برأسه :

— أعرف ..

استطرد وهو يتجه الى منصور سطوحى بعينين تدعيان

الغضب :

— اسأله أين رآنى ؟ ..

قال منصور :

— لماذا لا تتزوج ؟ ..

قال جابر محجوب :

— الشاطىء فى الصباح يصلح للمغامرات السريعة ..

وشى صوت المشاوى باستنكار :

— ماذا تعنى ؟ ..

قال جابر :

— أجرى ملاليم .. والشقق كلها تمليك .. فأين

نسكن ؟ ..

قال منصور :

— مع أهلك ..

قال جابر :

— أهلى فى كفر الدوار ..

قالت له أمه :

— لماذا لا تتزوج ؟ ..

أضافت للدهشة فى وجهه :

— أنت الآن صاحب عمل ومقتدر ..

هل كان عليه أن يرث أبيه لتصح حياته ؟ .. نصحت
بخطبته لفاطمة ، بنت عبد السلام العلوجى الموظف بهيئة
الميناء • جميلة ومتعلمة وطيبة ..

ضرب أبوه المائدة بقبضة يده :

— أزوجه لأتفق على تعليمه أم على يته ؟ ! ..

قالت مهونة :

— مجرد خطبة ..

وشى صوته بغضب :

— هل أصبحت خاطبة ؟ ! ..

وعلا صراخه :

— الأفضل أن تنصحيه بمذاكرة دروسه •• أخوه الأصغر
لحقه في السنة نفسها ••

فوجيء بما قالت أمه ، وملاً غضب أييه الصالة ،
فاتجه — بالخوف — الى حجرته ، وأغلقها عليه ••

روى جابر محجوب عن ظروفه منذ وفد الى الحى : سكناه
مع ثلاثة من الوافدين مثله • أحس حاجته — بعد أشهر —
للمعيشة بمفرده • اشترى سريراً وترايزة صغيرة وشماعة
حائط ، من دكان للأثاث القديم بالعطارين • داخ حتى وجد غرفة
في حنية سلم بيت بشارع سيدى العجمى • غالب تعبته من ضيقها
في البداية • حاول استكمال ما ينقصه ، حتى ألفها ، وألف
الاقامة فيها ••

تجربته الأولى مع امرأة من العجر • تحمل « الفلق »
وتنادى : أدق واطاهر • عرف ما لم يكن يعرف ، فتساوى
حبه لكل أصحاب الملاءات ••

— يبدو أنى اذا تزوجت •• فسأتزوج من العجر ••

قال منصور :

— يشرفك أن يكون الزير سالم جد أنسابك ! ••

قال جابر :

— ان لم أتزوج في الدنيا .. فسأتزوج من بنات الحور في الجنة ..

قال المنشاوى :

— عشم ابليس ! ..

استطرد وهو يطلق ضحكة مكتومة :

— لو أنك أنفقت على الزواج ما تنفقه على علاجك ..
فأنت الرابع ..

اتجه منصور الى جابر محجوب بعينين متسائلتين ..

قال جابر :

— أنا أكره الظلام .. والمقابر ! ..

وعرف منصور أن جابر يعانى لمسة أرضية تعتريه ، اذا دخل مكانا مظلما ، زقاقا أو نفقا أو مدخل بيت أو غرفة • لجأ الى الوصفات والتعاويد وأعمال السحر • تطوح في أذكار الحضرة بأبى العباس • زار الأضرحة ، وقدم الشموع والندور ، ولكنه ظل على ابتعاده عن الأماكن المظلمة • والاكتفاء بتقديم العزاء عقب الصلاة على الميت ، فلا يواصل السير الى المنارة ، أو العامود ..

تأثر لكلمات جابر محجوب :

— كنت أبدى ترددا في مرافقة أبى الى المقابر لزيارة
أمى • وكان يقول لى معاتبا : هل تريد اغضاب أمك فى قبرها
لو أنك لم تزرها معنا ؟ ! ••



مع أنه أعد نفسه للرفض • تعيب عليه أمه تصرفاته
وآراءه ، تبكى ذكرى أبيه ، وتأخذ على أكبر أبنائه حبه لنفسه ،
فان أمه واجهت فكرته بغضب لم يعهده فيها من قبل • اضطبغت
عينها بحمرة ، وسرت فى وجهها ارتعاشة ، وتمتت شفتاها
بما لم يستطع تبينه ••

قال يحاول تهدئتها :

— ستظل المكتبة باسم أبى •• كل ما أطلبه أن نغير
اسمها ! ••

لم تخف قلقها :

— أنا أعرف بك من نفسك •• اليوم نغير اسم المكتبة ••
وغدا تصبح المكتبة باسمك ••

عانى للافلات من حصار نظرتها :

— ألم تقرى وهى مغلقة ، أن نعرضها للبيع ؟ ! ••

وهى تقاوم الغضب :

— كان شرطى أن يظل للمكتبة اسمها .. مكتبة
سطوحى ! ..

قال :

— أغلقناها تسعة أشهر .. فتأثرت مبيعاتها .. والأفضل
أن نبدأ من جديد ! ..

ضغطت على الكلمات :

— سيظل للمكتبة اسمها ! ..

واستطردت وهى توليه ظهرها :

— ان لم يعجبك شرطى .. فعندى أغراب يوافقون عليه ! ..

لاحقته أنفاس أييه منذ اليوم الأول : ايصالات الايجار ،
فواتير الكهرباء • حتى كمبيالات التجار والشركات • كأنه
يديرها لحساب أييه • ربما سأله زبون : أين أبوك ؟ .. يهمس
بوفاته قبل تسعة أشهر • يعزى الزبون ، ويأخذ ما اشتراه ،
وينصرف • تظل صورة الأب فى المكتبة • أنفاسه تلاحقه •
يتصوره — أحيانا — فى مجلسه على الباب ، يحدث جيرانه من
أصحاب المكتبات والدكاكين المجاورة ، والمقابلة ، أو يرد
السلام على أصدقاء وزبائن يعبرون الطريق ..

قالت وهى تمسح دمعة فى طرف عينها :

— يجب أن تحرص على ذكرى أهلك ..
قال باستهانة :

— على ذكره لا على جثته ! ..
زعت :

— هل كنت تجرؤ على قول هذا في حياته ؟ ..
قال كمن يهمس لنفسه :

— كنت أتمنى أن أحب أبى ، بدلا من أن أخافه ! ..
كانت تشقيه ملاحظات أبيه : هل تظن أنك تقوى على
فعل ذلك ؟ .. أنت تفعل ما أقرره • وظيفتك الوحيدة هي
المذاكرة • دع لى الأمر ولا تفكر فيه • سأقرر الصواب
فيما بعد ..

وهمس — يوما — فى أذن الحلاق ، وغادر المكان • جرى
الحلاق بالماكينة على رأسه فى منتصفها • قهرته المفاجأة ، فظل
صامتا • أتم الرجل ما بدأه ، وإن لم يفلح فى مغالبة الدموع التى
طفرت من عينيه ..

تحشرج صوتها :

— ألم تكن تحب أباك ؟ ..

مسح الحجرة بنظرة غير واعية :

— كنت أحبه .. لكننى كنت أخافه أكثر ! ..

استطرد وهو يغمض عينيه بتأثر :

— ليتنى أطعته لأنى اقتنعت بأرائه .. لا لخوفى منه ! ..

عاد الى المقهى . يغادر المكتبة عقب أذان المغرب ، لا يترك
المقهى قبل اتصاف الليل . أبدت أمه غضبها فى البداية ، ثم
ألفت تأخره . ساعدها أن عودته الى المكتبة لم يكن مضى عليها
أيام ..

قال جابر محجوب ، لما سحب كرسيها ، واقترب من
لمة الأصدقاء :

— أهلا بريمة ! ..

قال بدر المنشاوى :

— هل حسبتك أمك ! ..

دخلت به جلسات المقهى منذ عرف طريقه اليها — عقب
وفاة أبيه — عوالم كأنها السحر . الأحاديث والمناقشات والدعابات
والنكات والأسرار التى تتحدث عن أشياء لا يعرفها ، ولا رآها
فى حياته من قبل . تفتحت عيناه — ووعيه — على عوالم ، لم



ف. ٢

يكن اقتحامها مما يدور بباله • تبدو مخالفة لما يدور في البيت،
وما كان يشهده ، أو يشارك فيه ، في الكلية ••

حين روى جابر محجوب عن الصهبة ، في ساحة سيدي
نصر الدين ، ملكه الفضول ، فتمنى رؤيتها • أسرف في السؤال
عن البواعث والبدائية والنهاية • رسم لكل شيء في ذهنه صورة
محددة ، وان هسه أن يطابق ما تصوره في موضع الصهبة ••



زاره أصدقاء المقهى ••

رحبت بهم أمه في نفسها • تمنى أن يقنعوه بالخروج ،
ولو الى المقهى • لزم - منذ الأصيل المشثوم - غرفته •
لا يغادرها الا الى الصالة ودورة المياه • يتجه مع كل صوت
في الشارع الى النافذة المغلقة • يطيل التحديق من خصائصها •
يلاحظ غياب ما يريب • اذا رن جرس الباب ، طلب التأكد من
شخصية القادم ، وأسرع الى حجرته ••

رفضت أمه نصائحه لماجد :

- دعه يذهب الى عمله •• حتى لا أشقى به أيضا ••

قال محذرا :

- مكتبه في مجلس الحي قريب من البيت ••

واستطرد بنبرة مشفقة :

— لا بأس ان اصطحب زملاء له في الذهاب والعودة ..

قال بدر المنشاوى :

— أنت أخطأت .. ولكن الموضوع انتهى ! ..

هذا ما تظنه ! .. لكن الملامح التى التقيت بها فى الصهبة ،
تلاحقنى ، تبين عن نفسها — عمدا — أسفل النافذة • حتى
المرأتان اللتان رافقتا المنقبة • غالت صيحة فزع لما أطالت
احدهما التحديق من الرصيف المقابل ، والابتسامة الغريبة تشى
بمعرفتها أنى أقف وراء النافذة المغلقة ..

قال :

— وهؤلاء الذين يمرون أسفل البيت ..

قال المنشاوى :

— انهم من أبناء السيالة .. طبعى أن يسيروا فيها ! ..

قال فى تأكيد :

— ما أعلمه أنهم ليسوا من الحى ولا من الأحياء المجاورة ..

قال جابر محجوب :

— هل أصبحت شيخ حارة ؟ ..

أضاف المنشاوى فى اشفاق :

— الناس يلهون .. وقد شاركتم لهوهم ..

هز رأسه بعصبية :

— النظام الدقيق ينفى أن ما رأيته كان مجرد لهو ! ..

وشى صوت المنشاوى بسخرية واضحة :

— هل ترى أنهم يعدون لقلب نظام الحكم ؟ ! ..

عندما قرر أن يصارحهم بما يعاينيه ، تصور أنهم سيشغلون
بأمره ، يأخذون ويعطون ، يشيرون بما يجب فعله • أدهشته
البساطة التى تلقوا بها حيرته ..

فوت ملاحظة المنشاوى ، وقال :

— انهم طريقة صوفية ترفض تسلل الغرباء اليها ! ..

قال المنشاوى :

— هذا ما تصورناه .. فلا تجعله تصورك ! ..

قال جابر محجوب :

— لو أنهم شاءوا أذيتك ، لفعلوا ذلك قبل أن تغادر

المكان ..

قال مذكرا :

— خشوا أفساد الطقوس ! ..

قال المنشاوى :

— أية طقوس ؟ ! ..

وشوح فى الهواء بيده :

— انها مجرد لعبة سخيفة ! ..

افتعل جابر محجوب ضحكة مبتورة :

— لعل المرأة تعاني الآن عذاب الشوق لقبلاتك ..

أضاف حسن الهن ، الموظف بقصر ثقافة الأنفوشي :

— أو لعلها تتحسس بطنها .. وتدعو لك بطول العمر ! ..

المطاردة التى لاحقته ثانى يوم ، أنسته دنيا جديدة لم يكن دخلها من قبل • لمح أبوه نظرتة المتسللة الى فتاة فى الطريق • دفعه بيد غاضبة : انه تعليمك أولا ! • حتى زميلاته فى الكلية ، كان شبح أيه يرقبه وهو يتبادل واياهن الأحاديث العادية • ولمحت أمه ثانية — بعد زواج منيرة — بحقه فى الزواج • صرخ أبوه : لن أزوج تلميذا ! •

قال المنشاوى وهو يعيد فنجان القهوة الى الترايزة :

— لو انهم يريدون اizardك .. فلن يصعب عليهم اقتحام

بيتك ! ..

واستطرد وهو يتهياً للقيام :

— ليتك تفتح المكتبة .. وتنسى ما فات كأنه لم يكن ! ..

لما علا صوت أمي بالفرحة ، عرفت أنك أنت • غابت
أصوات زوجك والأبناء ، وخفت حديثكما ، صار كالوشوشة ،
أو كالهمس ، فعرفت أنني أنا المقصود بالزيارة ..

لم أبرح مكاني في السرير • تعلق عيناى بباب الحجرة
المغلق • علب الهم شوقى لرؤيتك ، فانتظرت ، حتى نقرت
الباب ، وأدرت الأكرة • استنكرت من نفسى — فيما بعد —
أنى ظلت فى مكاني ، واكتفيت بالقول ، ربما دون أن أنظر
ناحيتك :

— أهلا ! ..

اصطنعت ابتسامة • ليست الابتسامة التى ألفتها منك •
بدا فى اقبالك ناحيتى ما يشبه الاشفاق ، أو الارتباك ..

تمنيت أن تسلمى ، وتتركى الغرفة ، فأخلو — من جديد —
الى نفسى • لكنك أطلت النظر الى أكداس الكتب التى اشتراها
لى ماجد ، منذ لزمت البيت • أقرأ وأقرأ وأقرأ • جزر أفر
اليها ، بعيدا عن المنقبة والصهبة والمزاد والزغاريد والأدعية
والابتهالات ، والمطاردة التى لا تنتهى ..

— متى تعود إلينا ؟ ..

— وأين أنا الآن ؟ ..

— أنت مع الكتب ..

— القراءة عمل مفيد ..

— ومن ينكر ؟ ..

استطردت والألم فى نبرات صوتك يشرق بالبكاء :

— ولكن أمانا وماجد .. وأنا أيضا .. كلنا نحتاج اليك ! ..

منذ أعلن أبى خطبتك لحسين الزنكلونى ، عرفت أنك ترفضين • شاركتك الرفض ، ربما للأسباب نفسها ، أو لأسباب أخرى : رأسه الضخم ، استطال فوق جسده النحيل ، تتوسطه عينان ضيقتان كالترتر ، تحتها أنف مفلطح ، وشفقتان غليظتان لا تبين منهما أسنانه • حتى لو شارك فى الأحاديث بتعليقات تعكس جهله بكل الأمور ، ما عدا عمله فى سمسرة الأراضى وبيع الشقق ..

لم أقل لك ، ولم تقولى لى • ولكن ذلك ما أكدته صمت نظراتنا • كان أبى يلهث لتنفيذ ما أعلنه • حتى ما كان الزنكلونى أهمله مسا وافق عليه ، أهمله أبى أيضا • أشفقت على نظرات الحيرة فى عينيك ، كأنك تطلبين الغوث • وكان الألم يمضى ، فلا أقوى على فعل شيء ..

قلت :

— وأنا أحتاج للخروج من هذه الغرفة ..

التمع في عينيك أمل :

— فلماذا لا تغادرها ؟

قلت مهونا :

— مشكلة سخيفة .. أفكر كيف تنتهى ..

أبان الألم عن نفسه :

— روت لى أمى كل شىء .. ولا مشكلة ! ..

أضفت بصوت باك كالتوسل :

— عد الى المكتبة ! ..

لفته نشوة وهو يفتح المكتبة • كأن تلاطم الأمواج في
داخله هداً • أزال التراب من الأرفف • أعاد تنظيم الكتب
والكراسات والأدوات المدرسية • همه تعويض ما فات •
تشاغل بكتابة أذونات توريد كراسات وكشاكيل وما ينقص
المكتبة ..

أكثر من التطلع الى الطريق بعينين منتبهتين • لم يكن ثمة



ما يشيره ، أو يلفت نظره • الدكاكين على حالها ، ونوافذ البيوت
تفتح لشمس الشتاء الدافئة ، والمارة في طريقهم من — والى —
ميدان المساجد والحجاري ، وأصوات التهيؤ لمولد أبي العباس ،
تتعالى في الدحيرة الخلفية ••

تناهى أذان الظهر ••

فكر في أداء الصلاة يياقوت العرش • ان لم تأت الى كل
صلاة في موعدها ، فسأعلم أنك هجرت طريق الله ••

لما أيقظته أمه في الصباح ، كانت قد فارقت • التقى بها
في الميناء الشرقية • ترتدى الملاءة ، وان خلعت النقاب • تتأمل
المراكب الواقفة كأنها تحصيها • بدت أجمل مما رآها في
الصهبة • لاحظ أن ملامح وجهها لا تعكس انفعالا ما ، لا تبين
عن مشاعر محددة • تأكد أنه سبق له رؤيتها ، وان صعب عليه
تذكر متى التقى بها قبل أن ينزع عنها الحجاب يوم الصهبة •
بوغت ، ففعل ما فعل • كانت جميلة الى حد أنها أنسته ما تربى
عليه ، والنظرات المحيطة ، والأحلام ، والخوف من اللحظة
التالية ••

صعدا الى قلعة قايتباي • أطلا على الأمواج التي تصطدم
بالصخور أسفل القلعة ، وعلى السفن البعيدة • كلمها عن أبيه
وأمه وأخويه • قال ان أخته — منذ زواجهما — لم تزر البيت

سوى مرتين ، أو ثلاث • أمه تحيا في ذكرى الأب الراحل •
تشرق ان جاءت سيرته • يلفها الغضب اذا تصرفوا بغير ما ألفت
الأسرة في حياته • ماجد منطو على نفسه • لا يحادثه في شئونه ،
ولا يطلب رأيه ، ولكنه يحبه • يتصور - حتى في حياة أبيه -
أنه أبوه • اذا تزوج ، وأنجب ، فلن يحب أبناءه مثل حبه له ••

في شاطئ الأنفوشي خلعت حذاءها • أشفق على قدميها من
سخونة الرمال • تحدثت عن الصهبة التي جعلت المستحيل
ممكنا • كلمته في احتضانه لها • فاجأها ، وفاجأ الآخرين •
قال انه فوجيء هو نفسه • بهره حسنها ، ففسى المحاذير ••

بالقرب من سراي رأس التين ، نزلت الملاءة • بدا نهداها
كبلورتين تغريان بالملامسة •••

استندت الى صخرة مستوية ، ونادته ••

اصطدمت الأمواج بصخور الشاطئ في أنغام متلاحقة ،
وأبانت قوى غامضة عن سحرها وقتوتها ، وبدت السماء شديدة
الزرقة ، وتقافزت الأسماك فوق المياه بما لم يره من قبل ،
ورفرفت أشعة المراكب ، وأطلقت سفن الميناء الغربية صفافيرها،
وتناهى صوت البروجي من الكلية البحرية ، وصفقت
- بأجنحتها - أسراب النورس • حتى الأصداف والطحالب
والأعشاب ، استطالت وتكورت ، فتشكلت مناظر غاية في
الجمال ، وسرت في الرمال سخونة دافئة ، وأطل عليه أبوه من

قلعة قايتباي ، فابتسمت لارتبأكه ، وقالت : لا تخف ! • وضربت
أمه صدرها بيد الدهشة ، فتمنى رضاءها وعفوها عنه ،
وتطوح الذاكرون أمام الباب الخلفى لسيدى البوصيرى ،
واختفى الشيخ الدجيشى قبل أن يلحق به ، فى انحناءة الطريق
الى الحجارى • وغلبه الخوف لما تبين اختفاء أبيه وهو يسير
فى غبشة الليل — خلفه — الى صلاة الفجر ، واستند ماجد
الى عامود بصحن أبى العباس ، يذاكر ، ويرنو اليه ، وتعالى
الأذان — بلا ميقات محدد — من مسجد قريب ••

سرقه الوقت ، فأزمع الاستحمام — بعد العودة من
المكتبة • يصلى أوقات اليوم كلها قضاء • من غد يصلى كل
وقت فى وقته ••

قبل أذان العصر زاره ماجد :

— مبروك ! ••

رد بابتسامة ترحيب ••

مع أن فارق السن بينهما لا يزيد على عامين ، فان ماجد
هو شقيقه الأصغر ، وهو ابنه • حتى فى حياة أبيه ، كان ذلك
شعوره نحو ماجد ، يأخذه صسته وانطواؤه ، كأنه ليس فى
البيت ، ولا منه ••

بدا ابتعاده عن المشاركة فى حياتهم اليومية ، كأنه حرص

على الابتعاد عما يغضب آياه ، فيلاحقه بالملاحظات والشتائم
التي يعانيتها منصور في اصراره على المناقشة ، وتوضيح وجهة
نظره . اذا نودى عليه لتناول الطعام ، جلس على المائدة ،
لا يشارك في الكلام الا اذا سئل . يجب بكلمات مقتضبة ،
وربما اكتفى بهزة الرأس ان كانت الاجابة المطلوبة نعم أو لا .
يستكملون الجلسة - لدقائق - في الصلاة . أما هو فيعود
الى حجرتهما ، يغلقها عليه . انشغل - أيام الدراسة - بالذاكرة .
وبعد توظيفه برئاسة الحى ، انشغل بالخرائط والأوراق ، يفردها
على الترابيزة الصغيرة أمام السرير ، لا يغادرها الا الى قضاء
حاجة ..

قالت أمه :

- ماجد ابن أبيه ..

أضافت وهي ترمقه في غضب :

- أنت لم تشبه أباك ، حتى في ملامحه ..

قال بهدوء :

- هذا اتهام لك ! ..

غلبها انفعال ، فقذفته بالمنفضة :

- أين تعلمت قلة الأدب ؟ ! ..

واتته جرأة ، فقال له أمام أمهما :

— لم يعد في حياتنا ما يدفعك الى الانطواء ..

تساءلت الأم :

— ماذا تعنى ؟ ..

قال بسرعة كمن يفر من اتهامها :

— أريده أن يخرج من الصدفة التى التصق بداخلها ! ..

قالت الأم :

— دع أخاك فى حاله .. يكفى أنه أنهى دراسته دون

متاعب ! ..

اطمأن ماجد الى انصراف زبون لم يجد الكتاب الذى

طلبه ، ثم قال :

— تعمدت أن أكلمك بعيدا عن البيت ..

دهمه قلق • أهمل ما بيده ، واتجه الى ماجد بنظرة

متسائلة ..

قال ماجد :

— أردت أن أسألك .. هل ما تفعله صواب أم خطأ ؟ ..

أعاد اليه السؤال :

— ماذا ترى أنت ؟ ..

غلبه ارتباك :

— ولا يفضبك رأيي ..

أشار بيده :

— لا تقله .. فقد عرفته ! ..

قال ماجد بنظرة متوسلة :

— صدقني .. يهمني أن تثبت للجميع أن ما اتخذته كان هو

القرار الصواب ..

ومضى في اتجاه السيالة ..

الشيخ عرفة الدجيشي ..

خطرت له الفكرة ، وهو يسير أمام المسجد في طريقه الى
المكتبة • ان لم تأت الى كل صلاة في موعدها ، فسأعلم أنك
هجرت طريق الله ..

عرف الشيخ من أيه • كان يؤدي صلاته في أبي العباس
والبوصيري وياقوت العرش • ونصر الدين • مساجد أولياء الله •
يلجأ الى بركتهم • يطلب الشفاعة والمدد • جلس الى درس

الشيخ الدجيشي بين صلاتي المغرب والعشاء • أثارته
الكلمات • نقل الى البيت - في جلسة كل يوم ، بعد تناول
العشاء - عظات الشيخ ، ما قرأه من آيات القرآن ، وأحاديث
الرسول ، وسير الصحابة والتابعين وأهل الخطوة • قال
الشيخ •• لاحظ الشيخ •• تحدث الشيخ في كذا وكذا •• دلنا
الشيخ على ما كنا نجهله •• اتسعت حلقة الشيخ بالمريدين ••

اقتصرت صلاته - فيما بعد على ياقوت العرش ، وربما
تردد على المسجد في غير أوقات الصلاة • يجلس الى الشيخ ،
يسأله ويطلب المشورة • يأخذ رأيه بتسليم ، فلا يناقشه • مرة
وحيدة ، وجد في رأى الشيخ ما يدعو الى الاعتراض • أهمل
التأدب والمحاذير ، حين اقترح الشيخ توجيه منصور الى
التعليم الدينى ••

ابتدره الشيخ :

- لم تأت في موعدنا ! ••

قال بهمس معتذر :

- منعتنى ظروف ! ••

ثنى اليه نظرة متسائلة :

- طيبة ان شاء الله ••

وشى صوته بقلق :

— بل قاسية وغريبة ..

أضاف للتساؤل فى عينى الشيخ :

— أتيت لأطلب رأيك ..

روى عن المطاردة ، وان أهمل بواعثها • حذف ، وأضاف ،
وبدل ، بما لا يسيىء الى صورته أمام الشيخ • حتى المرأة
التي باتت نهاره وليله ، تعتمد أن يخفى حكايتها معه • أصل
الحكاية كلها ..

قال الشيخ الدجيشى :

— هل يطاردونك لمجرد أنك شاركت فى جلوتهم ؟ ..

قال موضعا :

— ربما لأننى مارست ما كانوا يؤدونه من طقوس ..

قال الشيخ والغضب لائح فى عينيه :

— لم أسمع عن طريقة تطارد من يؤدى طقوسها ..

قال كأنه يستغيث :

— أتيت للسؤال : ماذا أفعل ؟ ..

واجه الشيخ عينيه :

— سلني عما يقع في نفسك ..

قال بتسليم :

— مشكلة أعانيها ..

دون أن يحول نظرتي :

— أنا أنصت اليك ! ..

وروي الشيخ ما حدث • أعاد الحكاية من بدايتها • استعداد

ما كان أهمل ، وإن ألقى على الأحلام عبء ما جرى ..

قال الشيخ :

— أحلام الجماع هلوسة ولا اعتبار لها ولا تأويل فيها ..

أضاف وهو يربت على كتفه :

— أذكر ربك بصدق .. تتطهر النفس من أدرانها ! ..

وقال مؤكدا :

— كل شيء غير ذكر الله وسوسة ! ..

همس بخوف :

— وهؤلاء الذين يقتفون خطواتي ؟ ..

سأل الشيخ :



— هل آذوك ؟ ..

علا صوته :

— وهل أنتظر ؟ ! ..

لم يجاوز الشيخ هدوءه :

— المصادفة تلقى بهم في طريقك ..

وهو يغالب اليأس :

— وتضعهم تحت نافذتى ؟ ! ..

قال بلهجة باترة :

— انس الأمر برمته ..

واستطرد كأنه تذكر شيئاً :

— ألاحظ أن المشكلات عرفت طريقها اليك منذ وفاة

أيك ! ..

قال لنفسه وهو يتأمل منيرة في حركتها الدائبة داخل

الشقة : هل ابتعادها عن بيتها لأنها تشفق عليه مما يحياه ، أم أنها

تحاول الابتعاد عن حياة زوجها ؟ ..

عندما تناول الزنكلونى الغداء معهم ، تصور أنها ستعود
الى بيتها معه • لكن الرجل قال وهو ينظف أسنانه بظفره :
— أنا أقدر الموقف •• ولا بأس من أن تظل هنا حتى تنتهى
الأزمة ! ••

وظلت فى البيت • اختلطت مشاعره ، فلم يعد يدرى ان كان
يسعده أن تظل معهم ، أم تعود الى بيتها ••
أدهشه توالى الأحداث ، بما يصعب أن يقع فى وقت
واحد فى مكان واحد • لم يحدث أمه ولا أخويه عنها • خشى
أن ينكروا وجودها مثلما قابلوا — بنظرات غير مصدقة — ما قاله
عن الصهبة ••

وقالت منيرة :

— أحيانا نخلط بين أحلامنا وما جرى بالفعل ••

ضايقته ملاحظتها ، وان آثاره اختلاط الحلم باليقظة ،
لا يدرى ان كان ما حدث قد حدث فعلا • يضايقه أنه يستيقظ
وقد غلبه الحزن ، أو الفرحه ، كأنه قد بذل جهدا هائلا • ناقش
وسأل وأجاب وضحك وهمس وصرخ وتحرك بما يتعبه • يجول
بنظره فيما حوله ، كمن يستوثق أين هو ••

سارت به الى حيث تسكن • شوارع من الاسكندرية ،

وان لم يسبق له التردد عليها • الناس من حولهم غائبو
الملاح ، فيما عدا الرجال الثلاثة والمرأتين في الصهبة ..

بدت الى جانبه هادئة ومستكينة ، كأنها تعرفه من زمان •
تتلامس أيديهما فلا تنفر ، أو تبدى انزعاجا ..

لم يسألها ان كانت من بحرى ، أو من حى آخر في
الاسكندرية ؟ .. ومن زوجها ؟ .. وماذا يعمل ؟ .. وهل
كان بين اللمة المحيطة ؟ .. ولماذا سكت حين رآه يحتضنها ؟
ويقبلها ؟ .. وما مدى تأثير الشيخ ونقاد كلمته ؟ ..

واتته الجراءة ، فسألها :

— بعد نزع الحجاب .. هل ..

قاطعته وهى تتحسس — بعفوية — بطنها :

— قالت الداية انى حامل ..

قال باستغراب :

— لم تكن الصهبة تسلية اذن ؟ ! ..

وشى صوتها بحدة :

— من تظننى ؟ ! ..

قال وهو يضغط على راحتها :

— سامحيني .. فوجئت بما حدث ! ..

حدثته عن الزوج الذى طال انتظاره للولد • رضيت
بالوقفة المتعبة ، وبكشف سرها ، والزحام ، والأذكار والدعوات
والإبتهالات ، كى تبرأ مما بها ، ويزول العقم ••

قاوما زحام شارع الميدان ، الى نهايته فى المنشية ••

وهما يقفان تحت النصب التذكارى للجندى المجهول •
يتطلعان الى الميناء الشرقية • فى اليمين مبنى السلسلة ، وفى
اليسار قلعة قايتباى ، ومتحف الأحياء المائية ، ومئذنة أبى
العباس تعلو أسطح العمارات المطلة على الكورنيش ، قال :

— تعبت من المطاردة ••

قالت باستغراب :

— ألا تريدنى ؟ ! ••

وهو يمسح المكان بنظرة غير واعية :

— من كانوا فى الصهبة ••

ابتسمت ، فبدا خرس ذهبى فى جانب فمها :

— أنت الآن منا •• فكيف يطاردونك ؟ ! ••

غالب توتره :

— لم أعد أغادر البيت •• يقفون أسفل النافذة ، وأمام

المكتبة • أراهم فى كل مكان ••

- داخل ابتسامتها اشفاق :
- هل آذوك بشيء ؟ ..
- برقت عيناه كمن يحاكي :
- نظراتهم تنذر بالشر المتوقع ..
- أعادت السؤال :
- هل آذوك ؟ ..
- بصوت كالخرجة :
- فماذا يريدون ؟ ..
- وهي تمسح على بطنها بيد مترفقة :
- منذ الصبوة .. أنت منا ! ..
- واجه عينيها :
- هل أهجر حياتي ؟ ..
- أخلت وجهها لدهشة :
- شاركت في المزاد باختيارك ..
- هزمه التوتر :
- لهوتم .. فشاركت في لهوكم ..

قالت بغضب :

— ما فعلته كان لهوا ؟ ! ..

دهمه ارتباك ، فتمتم كالمعتذر ..

أهملت يده ، ومضت في شارع الميدان ..

اصطدم بالزحام — في لحاقه بها — ولم يسعفه التلفت .

دخل مسجد ياقوت العرش ، بعد أذان الفجر بدقائق ..

توضأ ، وارتدى بالطو أليه فوق البيجامة ، ودس قدميه في صندل . بدا مسجد المسيرى من الداخل خاليا ، الا من ثلاثة أفراد ، استندوا الى الجدار الملاصق للمنبر . قرر أن يؤدي الصلاة في سيدى نصر الدين . ثم واصل السير — بكلمات الشيخ الدجيشى — الى سيدى ياقوت العرش : كنت أعدك لأخذ العهد ، لكنك خاصمتنا منذ رحيل أهلك ! .. الزم حضرتى ، تجن خيرا باذن الله ! ..

لمح الشيخ جالسا في منتصف الصحن الخالى . أولى ظهره الى الطريق ، وانشغل بأدعية ، فلا يتلفت حواه .. جلس وراءه ينتظر اقتباه الشيخ ، وقدوم المصلين .. أخيرا ، عدت الى الصلاة ؟ ! . هل أحدثه عن الظروف

القاسية ؟ .. ولكن ما شأن الشيخ بما جرى ؟ .. حدثته من قبل ، فصعب أن أخبره بالأمر كله ، لحظة الانفعال التي لحقتها المطاردة . لماذا لا أحدثه عن الأيام التالية ؟ .. سأنتظم من الآن في مواعيد الصلاة . والمكتبة .. سأل : هل تأخذ يومى ؟ .. أغلق المكتبة قليلا . أصلى وأعود . الصلاة هي الهدف . لا يهم ان أديتها في المسيرى أو نصر الدين أو ياقوت العرش أو أبى العباس أو البوصيرى . الحى يشغى بالمساجد . سؤال الشيخ كأنه الاتهام : هل يطاردونك لمجرد أنك شاركت فى جلوتهم ؟ ! ..

لم يخطئ الشيخ حين بذل النصيحة فى الرواية الناقصة . لو روى ما جرى منذ البداية : أحاديث المقهى ، وسعيه الى الصهبة ، ورفع النقاب ، والوجه الذى اجتذبه ، ففعل ما فعل . الصلاة فى مواعيدها تهبه الحق فى الاعتذار عما أخفى ، وإعادة رواية ما حدث ، ما سبق قوله ، وما تعمد اغفاله . يبذل الشيخ النصيحة ، يعينه على الفرار من المطاردة التى أرهقته . عانى مطاردتهم أمام المكتبة ، وأسفل البيت ، وفى الطريق ، داخل بحرى وخارجه . كأنهم يترصدون خطواته ، لا يقتربون منه أو يحادثونه . يكتفون بنظرة صامتة ، نظرة حيادية تخلو من معنى محدد . قالت : لا تخف ! .. زارته ، وغادرا البيت ، وسارا فى زحام النهار ، وفى هدوء ما بعد صلاة العشاء .. لكن

المطاردة ظلت على حالها ، والنظرات هي هي ، والتعليقات
المهونة والمكذبة تكتم ما يحيا داخله ، فلا يقوى على البوح ..
قدم مصلون ، اتجهوا الى دورة المياه ، أو كبروا لأداء
ركعتي تحية المسجد ..

أطلق - غصبا عنه - صيحة فزع ، لما أولاه الشيخ
وجهه ..

لم يكن هو الشيخ الدجيشي • تبين في الضوء الخافت ،
المشوب بالظلال ، ملامح شيخ الصهبة •
اتجه اليه الشيخ بابتسامة مطمئنة ..
اصطدمت ساقاه - وهو يتراجع - بشراشيب الحصير •
تماسك ، واندفع نحو الباب ..

قال بدر المنشاوي :

- جابر محجوب يخاف الظلام .. أما أنت ، فتخاف
اليوم كله ! ..

لم يعد يغادر البيت الا اذا اصطحبه أصدقاء المقهى ،
اليه ، أو الى المكتبة • يتناوبون مرافقته ، ويوصون جيران
المكتبة • يلزمون في العودة ، لا ينصرفون حتى يولى الطريق
ظهره ..

قالت :

— لا تخف ! ..

— منذ رأيت شيخ الصهبة في صحن المسجد ، لم يعد
بوسعى الذهاب الى أى مكان ..

قالت :

— لا تخف ! ..

قال :

— أتشوق للقائنا .. وأخافه ! ..

قالت :

— أترك البيت ..

قال :

— حتى الزحام يخيفنى ! ..

قال المنشاوى :

— هذه ليست مشكلة أيام .. ولا بد من حل ! ..

أضاف احيرته القاسية :

— حقك وواجبنا .. أن نصحبك حتى تزول الغمة ! ..

قال جابر محجوب :

— أهلا يا حاج ! ..

بدا له القادم ، منذ دخوله الى المقهى ، مناداته على عامل
النصبه ، دعاباته البذيئة وشتائمهم ، الاقتراب بكرسى — صادفه —
من مجلسهم ، أن الجالسين لا يحبون صحبته ..

ذوت المناقشات ، وحل صمت متوتر ، وانشغل المنشاوى
بتقليب كوب الشاي ، بينما أسند جابر محجوب كرسىه الى
الحائط ، وأغمض عينيه فيما يشبه الارهاق ..

حدق القادم فى منصور سطوحى ، وقال :

— عرفونا بالأستاذ ..

قال المنشاوى :

— منصور سطوحى .. جارنا بالسيالة ..

قال :

— هذه أول مرة يشرف القهوة ..

قال المنشاوى :

— عرفناه بعد ستة أشهر من غيابك ..

أضاف وهو يفتح الطاولة :

— فترة طويلة كما ترى ! ..

لاحظ حركته القلقة • يهرش بإصبعه أوسط رأسه ،
يتشأب ، يمد ساقيه ، يثنيهما ، يتطلع الى حركة المقهى حوله ،
يغمض عينيه ، ينظر الى نفسه كأنه يتأمل ثيابه • ثم ينظر
— بعفوية — في غير اتجاه ..

تجاهل الرجل حين لمح نظرتة المتسللة ..

هل يعرف سره ؟ ! ..

التقى بها الليل بطوله ..

دخلت عليه بثوب العرس • قفز من السرير — بفرحة —
واحتضنها • مسحت على ظهره ، ولامست أنفاسها أذنه •
تركت أصابعه تزيح الطرحة البيضاء ، فتبين عن شعر منسدل
فاحم السواد • قبلها ، فاستجابت • مال بها الى السرير ،
فتمددت ، وتناهت أناشيد الحضرة ، وان غاب مصدرها ..

تشاغل بمتابعة المشاوي وجابر محجوب ، تشاغلا بلعب
الطاولة • بدا له المقهى — منذ قدم ، للمرة الأولى ، اليه — عالما
مغايرا • هذا الرجل — بنظراته المقتحمة ، وبذاءاته — يختلف
عما بدأ يألفه في جلسة المقهى ..

أعاد النظر حواه : أفندية وعمال وصيادون وسائقو تاكسي
وكارو وباعة يانصيب ومحاسب لأولياء الله من ساكني الحي

وحاملو مجامير وسماسرة وشيالون ووجوه تنطق بالطيبة وأخرى
تشى بالتخابث وبدل قديمة وجلايب وسيالات ..

أدرك أن المقهى ليس مقصورا على من ألف رؤيتهم
ومجالستهم ، انما هو مفتوح لكل من يتردد عليه ، حتى تجار
المخدرات ، والقوادين والبلطجية ..

بدا على الرجل ضيق من انصرافهم عنه ، تصنع اللامبالاة ،
وزاد اجترأؤه . طعم كلماته بتعبيرات نائية وشتائم ، حتى لو لم
يحتمل الأمر . لمجرد أن يثير الجالسين ، فيدعوهم الى الرد ..
قال وهو يربت على ركة منصور بأصابعه :

— شرفنا فى البلقطرية يا أستاذ ..

وغادر المقهى ..

قال المنشاوى لنظرة منصور المتسائلة :

— هذا .. الحاج قدورة .. ثم انس الاسم ! ..

همس :

— لماذا ؟ ..

قال حسن الهن :

— تاجر حشيش بالبلقطرية ..

قال جابر محجوب :

— لم يعد تاجرا المحشيش .. الأقراص الآن أكسب ! ..

— ولماذا تصادقونه ؟ ..

قال المنشاوى :

— قل لماذا يفرض نفسه علينا ؟ ! ..

قال جابر محجوب : أهلا يا حاج ! • هل التقى به
أو شاهده من قبل ؟ • البشرة المجدورة ، والشعر الأكرت ،
والنم الذى يخلو — أو يكاد — من الأسنان • ربما التقى به
فى شوارع بحرى ، أو أنه تردد على المقهى ، وإن لم يجلس
اليهم ..

أعاد السؤال :

— اسمه الحاج قدورة ؟ ..

وأضاف متذكرا :

— قلت ان ناس الصهبة ليسوا من بحرى ؟ ..

هز المنشاوى رأسه فى تأكيد ..

هتف منصور سطوحى :

— لكننى رأيت هذا الرجل فى الصهبة ..

وسرح — لحظات — فى الملامح ، وتذكر تفاصيل ..

قال :

— هذا الرجل هو واحد من الثلاثة الذين رافقوا المرأة من البيت الى ميدان سيدى نصر الدين ..

غادر نقطة الأنفوشى وهو يتلفت • عادته التى ألفها فى الفترة الأخيرة • تبعه بدر المنشاوى وجابر محجوب • لم يعودا يفارقانه فى خروجه من البيت ، وعودته اليه ..

قال له الضابط :

— استدعيناك لنتناقشك فى بلاغك ! ..

قال بلهفة :

— ماذا قالوا ؟ ..

سأل الضابط :

— من هم ؟ ..

— أصحاب الصهبة ..

— أى صهبة ؟ ..

داخله قلق :

هل تعنى ؟

وهو يقذف الهواء بيده :

— كل التحريات أثبتت أن الصهبة التي أبلغت عنها من
شغل خيالك ..

بحلقت عيناه :

— لكننى شاهدتها بنفسى ..

هز الضابط رأسه :

— حتى رواد المقهى نفوا أنهم حادثوك فى الأمر من
أصله ..

لم يخف دهشته :

— بدر المنشاوى وجابر محجوب ..

قاطع الضابط :

— وحسن الهن وغيرهم .. أجمعوا على أنهم لم يروا
شيئا .. ولم يحادثوك فى أى شىء مما تصورته ..

أهمل ما حرص عليه من تأدب :

— أنا لم أتصور ! .. كل ما رأيته صحيح .. وشاهدته ..

صاح الضابط :

— هل تتعاطى شيئا ؟ ..

قاوم انفعاله :

— حتى السيجارة لا أَدْخنها ..

تخلل صوت الضابط رنة سخرية :

— اذن .. تغط جيدا قبل أن تنام ! ..

هل أخطأ بسماع نصيحة منيرة : لماذا لا تقدم بلاغا الى

النقطة ، لتوقفهم عند حدهم ؟ ..

— أنت اذن تصدقين ما حدث ..

قالت باستغراب :

— ولماذا أتصور أنك تكذب ؟ ..

مسح جبهته براحته :

— بدأت أشك ان كان ما عشته بنفسى قد حدث فعلا ! ..

رافقه المنشاوى وجابر محجوب الى نقطة الأنفوشى •

أذهله الضابط بما رواه عن أصدقاء المقهى • هل اجتذبتهم

المؤامرة ، فشاركوا فيها ؟ .. وهل هما يصحبانه لحمايته أم

لمراقبته ؟ .. وهل أتى الحاج قدورة الى المقهى من نفسه ،

أم أنهما دللاه على مكانه ؟ .. ولماذا وافق على فكرة ابلاغ

الشرطة ؟ ..

ظل — فى طريق العودة — صامتا • لم يشر الى حوارهِ مع

الضابط ، حتى أوصله صديقه الى البيت ، فسلم ، وصعد .
تصور أنه سيزيح عن نفسه هما ثقيلًا ، يوكل الى الشرطة ملاحقة
هؤلاء الذين يطاردونه بقسوة . حتى المساجد القريبة لم يعد
يتردد عليها . يتأكد من الأصوات جيداً قبل أن يفتح باب
الشقة . قرر أن يخرج الى الناس بعد أن تصل الشرطة الى
المطاردين .. لكن الشرطة خذلته ، وأصدقائه كذلك ، وحاصرتهم
الحيرة ..

نظرت منيرة اليه ، ففطنت الى ما حدث ..

قالت مهوَّنة : ..

— المشكلة الآن في يد الشرطة .. فلا تشغل بالك ..

تداخلت في صوته الحشرجة : ..

— الشرطة تنكر وجود مشكلة في الأصل ! ..

قالت بثقة :

— منذ قدمت بلاغك .. هي المسئولة عن كل

ما يحدث لك ..

غالب تغير صوته :

— هل أقاضيهم بعد قتلى ؟ ! ..

ربت على كتفه باشفاق :



— لا تعذب نفسك ! .. لو أن الشرطة وجدت ما يدعو الى
تنبيهك .. فلن تسكت ! ..

هزمته الحيرة :

— من يدري ؟ .. ربما الشرطة نفسها تتقى شرورهم ؟ ! ..

صحا بعد الفجر بقليل ، اللحظات التى يعمق فيها الظلام
فلا تبين المرئيات عن شىء • أصوات الأذان ، وأصداء
الصلاة ، وأناشيد الحضرة ، وتكبير الحجاج ، ودعوات الزائرين
للأضرحة ..

حين سلم على المنشاوى وجابر محجوب ، وأولى الطريق
ظهره كان قد اتوى أن يكون هذا هو آخر عهده بهما ،
لا يرافقانه ، ولا يفتح المكتبة ، ولا يتردد على المقهى • يلزم
حجرتة ، فلا يهجرها ..

جر وراءه من نقطة الأنفوشى الى البيت خيبة أمل قاسية ،
أذهلته عن الاجابة عن السؤال الذى أثاره فضول محجوب
والمنشاوى : ماذا قال له الضابط ؟ ..

لما سلم ، وأولى الطريق ظهره ، كان قد اتخذ قراره بأن
يلزم البيت ، لا يغادره • لا يرى أحدا ، ولا يراه أحد ..

تعالى زغاريد ودعوات وأصوات طبول ومزامير ونايات
ودفوف ودربكات وشخايل ، تصور — لفرط اقترابها — أنها
فى داخل الشقة ..

انتظر من فراشه ..

جرى الى الصلاة • أمه ومنيرة وماجد • غلبتهم الحيرة ،
فاكتفوا بتبادل النظرات ..

قال :

— هذه أصواتهم ..

تساءلت الأم :

— من هم ؟ ..

همس :

— الصهبة ! ..

اندفعوا — لاندفاعه — نحو النافذة .. أطلقوا من
الخصائص المغلق • الاعلام واللافتات والبيارق ، والعشرات من
الخلق فى الشارع الضيق أمام البيت • تلاصقت الأكتاف ،
وتطوحت الرءوس ، واهتزت الأجساد والأيدى ، وارتفعت
الأصوات بالتهليل والدعوات والصلاة على النبى ..

قال :

— لم اكن أحلم ولا واهما اذن ؟ ! ..

زاد من الطريق تلاغط الأدعية والابتهالات والزغاريد
ودقات الطبول والدفوف وعزف المزامير ..

شاهد المرأة وسط وجوه يعرفها ولا يعرفها • أمسكت
بالدف في يدها ، تسابق الجميع بضربات عالية ، متوالية •
يعلو صوتها بأغنية صعب عليه — لتلاغط الأصوات — تبين
كلماتها • انحسرت الملاءة الى ما فوق بطنها الحبلى ، واستكانت
عينها ، وتناثر شعرها بهزة الرأس المصاحبة لتوالى الضربات
على الدف • كأن الوجد مسها ، فلم يعد يشغلها سوى الضرب
على الدف بتلاحق لا ينتهى • لم تعد هى الفتاة الهادئة التى
زارته فى حجرته ، وسارت معه على رمال الشاطئ ، وعلى
الكورنيش ، وخاضت بجانبه زحام الشوارع • ذابت فى الوجد ،
فأغلقت عينيها ، وسارت — بتدافع الصهبة — وعلا الدف •
وهبط ، تلاحقه الضربات بآخر ما عندها ..

لم تقتصر القوة الدافعة على ما يتناهى اليه من النافذة •
انبثقت من داخله ، غالبت ارادته ، قوة غير طبيعية ، لا عهد له
بها ، تستحبه ، تدفعه بعيدا ، الى حيث تمضى الصهبة • وهمس
فى أعماقه هاجس : لكى تفر مما يشغلك ، اقذف بنفسك
داخله ..

مضى في اتجاه السلم ، لا يأبه بدهشة ماجد ومنيرة ،
ولا صراخ أمه ..

التفت الأم الى أخويه بحيرة .. تساءلت وهي تغالب
نשיجها :

— هل انجذب ؟ ! ..

١٩٨٩/٥/٦ مصر الجديدة — محمد جبريل

للمؤلف . .

- ١ - **تلك اللحظة** (مجموعة قصص) ١٩٧٠ - لجنة النشر للجامعيين .
- ٢ - **مصر في قصص كتابها المعاصرين** (الكتاب الحائز على جائزة الدولة) ١٩٧٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٣ - **الأسوار** (رواية) ١٩٧٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٤ - **انعكاسات الأيام العvisية** (مجموعة قصص) ١٩٨١ - مكتبة مصر .
- ٥ - **امام آخر الزمان** (رواية) ١٩٨٤ - مكتبة مصر .
- ٦ - **مصر . . من يريد لها بسوء ؟** (مقالات) ١٩٨٦ - كتاب الحرية .
- ٧ - **هل ؟** (مجموعة قصص) ١٩٨٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٨ - **من أوراق ابي الطيب المتنبي** (رواية) ١٩٨٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ - قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

تحت الطبع :

- ١ - قلعة الجبل (رواية) .
- ٢ - المجادل (مجموعة قصص) .
- ٣ - النظر الى أسفل (رواية) .
- ٤ - حكايات عن جزيرة فاروس (رواية) .
- ٥ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين - الجزءان الثانى والثالث .

رقم الايداع ١٩٩٠/١٩٩٥

الترقيم الدولى ٨ - ٢٣٤٩ - ٠١ - ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه الرواية .. اضافة جديدة ومتميزة إلى العالم
الروائي للكاتب المبدع محمد جبريل .. الواقع يختلط
بالخيال ، الحلم بالحقيقة ، الأسطورة ولحظات الوجد
الصوفي والمشكلات الأنية . تبدأ الأحداث بالصهبة
الصاخبة التي يجد المرء نفسه جزءا منها وتنتهى بها
كذلك . ولكن البداية تبدأ قبل الأحداث ، ويغيب البطل في
زحام الصهبة فتبين التساؤلات والتوقعات عن ملامحها
غير المحددة .